

# الأسطورة والنص المقدّس

ماهية الأسطورة في العهد الجديد  
والقرآن الكريم

محمد إدريس

باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة  
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved  
Mominoun Without Borders





للظواهر والمؤسسات الاجتماعية (قيم، عادات، تقاليد،...) والمؤسسات الدينية (المعتقدات، الطقوس، المحرمات، المقدسات،...)، وهي محاولة لفهم طبيعة العلاقة التوأصليّة التي يعقدها الإنسان مع الآخر (الله...). وبذلك، تكون الأسطورة خطاباً وجودياً ينطلق من وجود الإنسان، ليعود إليه سعياً إلى رفع أسباب الحيرة عنه وبعث الطمأنينة فيه.

وقد ذهب الفيلسوف الألماني أرنست كاسيرر Ernst Cassirer (1874-1945) في "فلسفة الأشكال الرمزية" و"مقالة في الإنسان" و"الدولة والأسطورة" إلى نفي أن تكون نعمة قطيعة بين المعارف الوضعية النظرية والمعارف المؤسسة على البعد الأسطوري،<sup>12</sup> ذلك أن الفرق بين الأسطورة والعلم لا يعدو أن يكون نوعياً لا يمسّ الجوهر.<sup>13</sup>

## المبحث الثاني: ماهية الأسطورة في النصوص المقدسة

إنّ النصوص المقدسة الثلاثة (العهد القديم، العهد الجديد، القرآن الكريم) عمدت إلى النأي بنفسها عن الأسطورة بأن اتخذت منها موقفاً سلبياً؛ ففي تلك النصوص كانت الأسطورة خداعاً ووهماً، فكيف لنا بعد ذلك القول بوجود صلة بين الأسطورة والنصوص المقدسة للأديان الكتابية؟

قام موقف النصوص المقدسة من الأسطورة على الإقصاء والإلغاء؛ فهي تنفي نفيًا قاطعاً أن تكون لها صلة بالأسطورة، بل تعتبرها توأماً للخرافة. على أنّ ما يدفعنا إلى النظر في منزلة الأسطورة في النصوص المقدسة ما ألفتناه من تشابه بين أحداث النصوص المقدسة وأحداث الأساطير المصرية واليونانية...<sup>14</sup> فهل يعني ذلك أنّ قصص الأنبياء والرسل أساطير صيغت في شكل جديد؟

إنّ في قصص الأنبياء والأمم البائدة، وفي مشاهد العقاب والثواب في الآخرة -أسطورة للفضاء والزمن والحدث، وفي ما يتصل بهذه المسألة، نقول إنّ النصوص المقدسة لا تقلّ شأنًا عن الأساطير القديمة معانقة لعالم العجيب والغريب المملوء بالخوارق والآيات والمعجزات.<sup>15</sup>

<sup>12</sup>-Cassirer (Ernst): Essai sur l'Homme, Deuxième partie : L'Homme et la culture, pp 97-308

<sup>13</sup>- كاسيرر (أرنست): الدولة والأسطورة، (سبق ذكره)، ص 69. وفي نفس السياق ننزل ما قام به فرنسوا جاكوب في "لعبة الممكنات" Jacob (François): Le Jeu des possibles: Essai sur la diversité du vivant, éd, Fayard, Paris, 1981. Temps des sciences الذي بين فيه جملة من القواسم بين العلم والأسطورة والسحر...، من ذلك أنّ العلم/ الطب فسر المرض بأنه ناتج عن فيروس، في حين عدّ التّصور الأسطوري الأمراض شكلاً من أشكال غضب الآلهة.

<sup>14</sup>- السّعفي (وحيد): العجيب والغريب في تفسير القرآن تفسير ابن كثير أنموذجاً، دار نبر الزّمان، تونس، 2001، وأنظر كذلك كتابه القربان في الجاهلية والإسلام، ط 1، دار نبر الزّمان، تونس، 2003

<sup>15</sup>- المسعودي (حمّادي): مُتخيل النّصوص المقدسة في التّراث العربي الإسلامي، سلسلة مقام مقال، دار المعرفة للنّشر، ط 1، تونس، 2007، الفصل الثالث: الأسطورة في النصّ الديني: من ص 179 إلى ص 275

العجيب المتجلي في الأحداث – المحدث ما دلّ على الطريف المستطرف الخارج عن المألوف والسائد- دال على تواصل العالمين وانسجامهما، وهو مظهر من مظاهر موافقة النص المقدس للأساطير الشرقية القديمة<sup>16</sup> التي محت الفواصل بين عالم البشر وعالم الآلهة في أغلب الأحيان.

الأحداث المتخيّلة: العجيبة الغريبة الأسطورية لا تستمد قيمتها من ذاتها، وإنما تستمد تلك القيمة-في أغلب المواضيع- من خصائص الأزمنة أو الفضاءات التي تحدث فيها.

وفي هذا السياق، نشير إلى أنّ الإمام بمُتخيّل النصوص المقدّسة يقتضي بالضرورة النظر في السياقات التي نشأت فيها. وتبيّن ماهية النظم المعرفيّة المزامنة لنشأة هذا الدين أو ذلك من جهة،<sup>17</sup> والوقوف على خصائص المنظومة الأخلاقية والأعراف الاجتماعية... السائدة آنذاك من جهة أخرى.

ذلك أنّ تلك النصوص المقدّسة قد نشأت في أحضان نظم معرفية متنوّعة (السحر، العرافة، ...) ونمت وترعرعت على أنقاض الأساطير والملاحم، ولا غرابة في ذلك؛ فالأسطورة هي المقوم الرئيس في حياة الفرد والجماعة؛ فهي الدين والأخلاق والقانون والعلم.<sup>18</sup>

علاقة الدين بالأسطورة وفق هذا التصوّر، هي علاقة الفرع بالأصل، على أنّ الفرع نما فغاير الأصل، فاللفظ اليوناني "تيولوجيا" في "معناه الأصليّ الاشتقائيّ هو القول في الله، لكنّ معناه تطوّر [مع أفلاطون فأصبح] بمعنى علم الأساطير"<sup>19</sup> بيد أنّ متون النصوص المقدّسة تظّل وفيّة لأصولها الأسطوريّة؛ فهي تحتوي على نواة أسطوريّة Noyau mythique، إذ بات من المسلّم به عند أغلب الدارسين أنّ النصوص الدنيّة – النصوص المقدّسة والنصوص الحواف- تحمل في ثناياها رواسب أسطوريّة، أو هي تقوم على بنية أسطوريّة.<sup>20</sup> ولكن بم نفسّر رفض النصوص المقدّسة للأسطورة؟

<sup>16</sup>- ورّع محمّد أحمد خلف الله القصص القرآني إلى ثلاثة ألوان: الأوّل تاريخي والثاني تمثيلي والثالث أسطوريّ. أنظر خلف الله (محمد أحمد): الفنّ القصصي في القرآن الكريم، تعليق خليل عبد الكريم، دار الانتشار العربي، ط 4، بيروت لبنان، 1999، فصل "الفنّ في القصّة القرآنيّة" من ص 147 وما بعدها، وهو تقسيم يبيّن صلة جزء مهمّ من القصص القرآني بالأساطير في مستوى البناء ومنطق السرد.

<sup>17</sup>- إدريس (محمّد): النبوة والنظم المعرفية في النصوص المقدّسة (القرآن الكريم أنموذجاً) قراءة في سلطة الواقع المعرفي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 155/154، دد، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان، شتاء ربيع 2011، ص 102-119. والنبوة والنظم المعرفية في النصوص المقدّسة (الكتاب المقدّس أنموذجاً) قراءة في سلطة الواقع السياسي والاجتماعي، مجلة آداب الفيروان، العدد 10/9، دد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالفيروان – جامعة الفيروان: 2012-2013، ص 107-147

<sup>18</sup>- عجينة (محمّد): موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، (سبق ذكره)، ج1، ص 35

<sup>19</sup>- بدوي (عبد الرحمان): ملحق موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط 1، بيروت لبنان، 1996، ص 34

<sup>20</sup>- أركون (محمّد): تاريخية الفكر الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت لبنان، 2002، ص 222

## الأسطورة في الكتاب المقدس والثقافة المسيهوية<sup>21</sup>

تجلى الموقف المسيهوي من الأساطير في أمرين: تمثل الأول في الموقف الذي اتخذته الأخبار من الأسفار غير القانونية (مكابين الأول، مكابين الثاني، طوبيا، الحكمة،...)؛ فهي عندهم - وعند أغلب اليهود- مجموعة من الأساطير والخرافات والأكاذيب. أما الأمر الثاني، فتمثل في الموقف الإنجيلي من الأسطورة؛ ففي "العهد الجديد" ثلاثة مواضع فيها ذكر للأسطورة،<sup>22</sup> وقد ورد الموضوعان الأولان في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس، وهما: "أطلب إليك أن تبقى في مدينتي أفسس، لكي تمنع بعض المعلمين من نشر التعاليم المخالفة للتعليم الصحيح، وتوصي المؤمنين ألا ينشغلوا بالأساطير وسلاسل النسب المتشابكة. فذلك الأمور تثير المجاذلات...."<sup>23</sup> و"إن بسطت هذه الأمور أمام الإخوة كنت خادماً صالحاً للمسيح يسوع، متغدياً بكلام الإيمان والتعليم الصالح الذي اتبعته تماماً. أما أساطير العجايز المبتذلة فتجنبها. إنما مررت نفسك في طريق التقوى".<sup>24</sup> أما الموضع الثالث فجاء في الرسالة الثانية لبطرس: "لم نكن ننقل عن أساطير مختلقة بمهارة. وإنما تكلمنا باعتبارنا شهود عيان لعظمة المسيح."<sup>25</sup>

بيد أن المتأمل في بعض النسخ الإنجيلية، يجد المواضع المتعلقة بالأساطير والخرافات أكثر من ذلك؛ ففي نسخة "الكتاب المقدس" الموسومة بـ Holy Bible،<sup>26</sup> خمسة هي المواضع التي وردت فيها عبارة Myths، فإلى جانب المواضع الثلاثة المذكورة أعلاه، أضاف مترجمو هذه النسخة موضعين، هما: الآية الرابعة عشرة من الإصحاح الأول من الرسالة إلى تيطس، والآية الرابعة من الإصحاح الرابع من الرسالة الثانية إلى تيموثاوس، وإذا ما قارنا بين النسخة الإنجيلية والنسخة العربية، وجدنا الموضعين المضافين قد تم فيهما استخدام عبارة "خرافات"، بدلا من "أساطير"، وفي المقابل استبدلت بعض النسخ الفرنسية<sup>27</sup> في المواضع الخمسة عبارة les Mythes، بـ les Contes حيناً، وبـ les Fables حيناً آخر.

إنّ النظر في الترجمات المختلفة للآيات الإنجيلية، ينتهي بنا إلى أن ثمة علاقات وطيدة بين الخرافات والأساطير والحكايات؛ فما هي أهم وجوه القرابة بينها؟ وما المقصود بالأسطورة في "العهد الجديد"؟

<sup>21</sup>- مصطلح المسيهوية judéo - chrétienne دال على الإرث العقائدي المشترك بين المسيحية واليهودية، وهو من وضع عبد المجيد الشرفي . أنظر: كتابه الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر، الدار التونسية للنشر، ط 1، تونس، 1986، ص 55 الهامش عـ 98 دد.

<sup>22</sup>- الكتاب المقدس، كتاب الحياة، المؤسسة العالمية للكتاب المقدس، ط 3، (دون مكان)، 2000.

<sup>23</sup>- العهد الجديد، الرسالة الأولى إلى تيموثاوس 4-3/1

<sup>24</sup>- العهد الجديد، الرسالة الأولى إلى تيموثاوس 7-6/4

<sup>25</sup>- العهد الجديد، الرسالة الثانية إلى بطرس 16/1

<sup>26</sup>- International Bible Society, Great Britain, 1999. Holy Bible

<sup>27</sup>- Voir Le nouveau testament : traduction louis Segond, la Société biblique de Genève, Paris, 1984

تحليل العبارتان الفرنسيّتان les Contes و les Fables على جنسين من أجناس القصّ؛ فالحكاية Conte جنس شديد الصّلة بالمثل Apologue.<sup>28</sup> أمّا الخرافة Fable، فهي قصّة قصيرة ذات عبرة يقوم فيها الحيوان أو الجماد أو النّبات مقام الإنسان.<sup>29</sup>

تتفق الحكاية والخرافة<sup>30</sup> في كونهما شكلين من أشكال القصّ التي تتجاوز الواقع، وتعتمد الخيال للتعبير عن الوضع الإنسانيّ، وقد يكون اعتماد الخيال ضرباً من ضروب التّسليّة والإمتاع.

إنّ الآيات الإنجيليّة المشار إليها وردت ضمن رسائل للرّسل، وهي تأتي في فترات متقاربة زمنياً (64 م إلى 68 م)،<sup>31</sup> وهي منسوبة إلى رسول من اثنين هما: بطرس حيناً (الرّسالة الثّانية بطرس)،<sup>32</sup> وبولس حيناً آخر (الرّسالة الموجّهة إلى تيموثاوس والرّسالة الموجّهة إلى تيطس)، وقد تعلّقت هذه الرّسائل بأوضاع مؤمني الأمم الأخرى- لا سيما المناطق المتاخمة لبحر إيجه-.

لقد دوّنت هذه الرّسائل في ظرف تاريخيّ تميّز بانتشار الأنبياء الكذّابين/ المعلمين الدّجالين؛<sup>33</sup> فجميع هذه الرّسائل عمدت إلى التّحذير من مخاطر التّعالم الزّائفة التي يُروّج لها هؤلاء المعلّمون والأنبياء الكذّابون.

ونحن إذا ما تأملنا الإصحاحات التي ترد فيها هذه المواضيع، وجدناها تحيل على أمرين، هما:

انتشار العقائد المُنافية للتّعالم الرّسوليّة، وإلى انشقاق جملة من المسيحيين عن بولس، أمثال إسكندر- المعروف بإسكندر النّحاس في الكتب الكنسيّة- وهمايوس.<sup>34</sup>

ويبدو أنّ هذه الخلافات قامت حول مضامين الشّريعة من جهة، وحول طبيعة المسيح وفدائه للبشر وحقائقه وعودته في آخر الأزمنة من جهة أخرى؛ ففي الرّسالة الثّانية إلى بطرس 16/1 عبارات واضحة تؤكّد عدم اتّفاق المؤمنین حول عقيدة الفداء وعودة المسيح. أمّا الرّسالة الأولى إلى تيموثاوس 1/4، ففيها إشارات غامضة تربط

<sup>28</sup> - « Apologue » Voir Dictionnaire le nouveau Petit Robert, Paris, 2001, art

<sup>29</sup> - Ibid, art « Fable».

<sup>30</sup> - تبدو العلاقة بين الحكاية والمثل علاقة الجزء بالكلّ، على أنّ كليهما شكل من أشكال السّرد الشّفويّ، وهما بذلك يتفقان مع الخرافة التي يجمع أغلب علماء السّرديات Narratologie على اعتبارها سرداً نثريّاً شفويّاً- بالأساس- يقصّ أحداثاً مُتخيّلة.

<sup>31</sup>-Voir Thiollier (Marguerite -Marie): Dictionnaire des religions, Larousse, Paris, 1985, p 201

<sup>32</sup> - أثّرت حول هذه الرّسالة جملة من الشّكوك، فهي لم تكن محلّ إجماع بين القائمين على الطّوائف المسيحيّة، وهي لم تُضمّ إلى أسفار "العهد الجديد" إلّا في القرن السّادس. وللمزيد من التوسع في هذه المسألة انظر بطرس (عبد الملك): مقال "بطرس" في قاموس الكتاب المقدّس، (سبق ذكره)، ص 174 وما بعدها.

<sup>33</sup> - أنظر في ما يتعلّق بالصراعات التي قامت بين التلاميذ والأنبياء الكذّابين في "العهد الجديد" إدريس (محمّد): النبوة والنظم المعرفية في النصوص المقدّسة (الكتاب المقدّس أنموذجاً)، قراءة في سلطة الواقع السياسي والاجتماعي، (سبق ذكره)، ص ص 142-136

<sup>34</sup>-Voir Catechism of the Catholic Church, Paulist press, London, U.K, pp 117-118



بين الحديث عن النسب والأساطير؛ فالآية لم تحدّد المقصود بالنسب / *généalogies*، وأغلب الظن – عندنا- أنّ بهذه العبارات نسب المسيح يسوع؛ ففي تلك الفترة بدأت تتشكّل العقائد الرئيسة للديانة المسيحية (النبوّة، الفداء، الصّلب،...)،<sup>35</sup> فنحن إذا ما عدنا تاريخياً إلى الفترة التي دُوّنت فيها هذه الرّسائل وجدناها تأتي مباشرة بعد تدوين "إنجيل لوقا" الذي بدأت معه تبرز جملة هذه المقولات اللاهوتية المسيحية، على أنّ التّصوّرات الكتابية المسيحية بما هي مقولات تاريخية لم تكن مجال إجماع الطوائف المسيحية آنذاك،<sup>36</sup> وهو الأمر الذي دفع بالبعث يومها إلى اعتبار تلك المقولات أساطير-الأخبار الكاذبة- مُختلفة من قبل التلاميذ، وهو ما نفاه الرسول بطرس الذي بيّن أنّه لا يستند إلى الخيال، وإنّما يعتمد إلى نقل الأخبار والأحداث نقلاً أميناً، ذلك أنّ ما نقله التلاميذ هو نقل شهود عيان لعظمة المسيح.<sup>37</sup>

وبهذا المعنى، نقف عند دلالات عبارة "أساطير" التي استعملها "العهد الجديد" في سياقين حجاجيين مختلفين، السياق الأوّل، يتعلّق بالنّهم التي وجّهها أنصار الشريعة الموسوية إلى المؤمنين بالفداء وقيامة يسوع. أمّا السياق الثّاني، فيتعلّق بالتّعالم المخالفة للتّعالم المسيحية، والتي نشرها "الأنبياء الكذّابون"، فكانت عبارة "الأساطير" في كلا السياقين دالة على بعد تهجيني للأفكار والقيم التي يحملها الآخر أيّاً كان. فإذا بالأساطير صنو للبدعة والهرطقة، ولكلّ ما من شأنه أن يمسّ بالحقائق الدّينية (الفداء والصلب، القيامة،...).

كان هاجس الرّسل ومُدوّن "العهد الجديد" خلق صلات بين الحدث الدّيني والحدث الوقائعي/ صلب المسيح، ومن أجل ذلك عمدوا إلى قراءة الحدث الوقائعي/التاريخي قراءة غائية، فأعادوا فهم الأحداث وترتيبها ضمن تصوّر دينيّ مستدعين جملة من الأساطير الشّرقيّة.<sup>38</sup> فكان الصّلب كفّارة، وكان الموت على الصليب انفصلاً لللاهوت عن الناسوت وانتقالاً من ملكوت الأرض إلى السّماء، وهو تصوّر لم يلق – يومها- رواجاً بين اليهود، ممّا اضطر التلاميذ إلى نشر تعاليم المسيحية بين أبناء الأمم الأخرى.<sup>39</sup>

### الأسطورة في الثقافة العربيّة الإسلاميّة

عُرّفت الأسطورة في المعاجم والقواميس العربيّة القديمة بأنّها "السّطرُ والسّطرُ الصّفُّ من الكتاب والشّجر [...] والجمعُ [...] أساطيرُ عن اللّحائي وسُطورٌ ويقال ببنى سطرّاً وعرَسَ سطرّاً والسّطرُ الخَطُّ والكتابةُ [...]".

<sup>35</sup>-Ibid, p211.

<sup>36</sup>- أنظر القرواشي (حسن): مدخل إلى تاريخ المسيحية، وزارة التّعليم العالي- جامعة الزّيتونة، ط 1، سلسلة دراسات ع- 28 حد، تونس، 1998، ص ص 93-83

<sup>37</sup>- العهد الجديد، الرسالة الثانية إلى بطرس 16/1

<sup>38</sup>- لم تقتصر المحاكاة في النصوص الإنجيلية على الاقتباس من النص التوراتي (موسى، إيليا،...) فحسب، وإنّما طالت أيضاً نصوصاً أخرى مثل "إنجيل بوزا"، قارن في ما يتصل بهذه المسألة بين تفاصيل ميلاد بوزا Boudah وتفاصيل ميلاد يسوع في الأنجيل القانونية. أنظر الفصل الرابع "مولد بوزا" من الفقرة الأولى إلى الفقرة العاشرة من إنجيل بوزا، ترجمة سليمان شيا، دار الحدّثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت لبنان، 1991

<sup>39</sup>- العهد الجديد: إنجيل يوحنا 21/4-24، أعمال الرسل 15/39-40



ثم أساطير جمع الجمع وسطرها ألفها وسطر علينا أانا بالأساطير الليث يقال سطر فلان علينا يسطر إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل، يقال هو يسطر ما لا أصل له أي يؤلف [...] يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها وتلك الأقاويل: الأساطير والسطر <sup>40</sup>.

الأسطورة هي الحديث الشفوي أو المكتوب، وهي السرد المنظم، والحديث الجميل (المنمق) المخترع (ألف) الباطل الذي لا صلة له بحقائق الأمور؛ فهي إذن، سرد نثري بالأساس يقص أحداثا متخيّلة لا يحكمها منطق دقيق شأنها في ذلك شأن الخرافة،<sup>41</sup> وهو تصور حرص النص القرآني على إبرازه؛ ففيه علقنا بأساطير الأولين جملة من الصفات السلبية.

ونحن إذا ما تأملنا الآيات القرآنية التي اتّصلت بالأسطورة ألفيناه تسع آيات،<sup>42</sup> وقد جاءت جميع المواضع في صيغة واحدة تتمثل في مركّب اسمي بالإضافة، كان المضاف "أساطير" والمضاف إليه "الأوليين" في صيغة الجمع. وقد وردت جميع المواضع على ألسنة مشرّكي قريش الذين استعملوا المركّب الاسمي بالإضافة "أساطير الأولين"، للتعبير عن عدم اقتناعهم بما جاء به محمّد من عقائد جديدة، وعلى وجه الدقّة القول ببعث الأموات في الآخرة.

فما المقصود بأساطير الأولين؟ ولماذا نعتت قريش "القرآن الكريم" بـ"أساطير الأولين" دون النعوت الأخرى؟ وهل كان مقصد قريش من اعتبار "القرآن الكريم" أساطير الأولين ذمه والخط من شأنه أم هل كانت لها مقاصد أخرى؟

للإجابة عن هذه الإشكاليات، نعلم إلى النّظر في بعض الآيات القرآنية المتّصلة بالمسألة، تبين دلالاتها بالوقوف على أسباب نزولها.

40- ابن منظور (جمال الدين) (ت 711هـ): لسان العرب، دار صادر، ط 1، بيروت لبنان، 1997، مادة (س، ط، ر)، ج 3، ص ص 284-285

41- تشير في هذا المجال إلى وجود بعض الدراسات التي تعتبر الأسطورة والخرافة بمنزلة واحدة من ذلك ما ذكره زيادة (معن) وآخرون: الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، ط 1، بيروت لبنان، 1997، ص 67 و 411، ويبدو أنّ حياة التحرير قد أحسّت بهذا التداخل وصعوبة الفصل بين المصطلحين فعمدت إلى وضع "إضافة" جاء فيها أنّ الفرق بين الأسطورة والخرافة يتمثل في أنّ الأولى تنتمي إلى عالم المكتوب. أمّا الثانية فهي تنتمي إلى عالم الشفوي، وهو تصور لا يمكن الأخذ به بأيّ حال من الأحوال، أمّا محمّد أركون فاعتبر الفرق بين الأسطورة والخرافة مائل في "الدرجة" فالأسطورة مشحونة بطاقة خلّاقة وأمّا الخرافة فسلبية" أنظر الهامش ط من ص 52 في أركون (محمّد): من فيصل التفرقة إلى فصل المقال، أين الفكر الإسلامي المعاصر، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي، ط 1، لندن إنجلترا، 1993. وقد بيّن محمّد عجبنة في موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، (سبق ذكره)، ج 1، ص 19 وجوه الالتلاف والاختلاف بين الأسطورة والخرافات بالقول إنّ "الخرافة [...] تتميز عن الأسطورة بأنّها ليست محل اعتقاد من أيّ كان [ولكن...] أليست بعض الخرافات أساطير كفت أصحابها عن الإيمان بها" من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الخرافة في الوعي الجماعي "محض الخيال [...] ويقصد بها الإمتاع والمؤانسة. أمّا الأسطورة فهي خطاب الجد والحقيقة". أنظر المرجع نفسه، الجزء نفسه، ص 65

42- تتوزع الآيات التسعة على النحو الآتي: ثمان منها مكّيّة ( الأنعام 25/6، الفرقان 5/25، النمل 68/27، الأحقاف 17/46، المطففون 13/83، النحل 24/16، المؤمنون 83/23، القلم 15/68) وواحدة مدنيّة (الأنفال 31/8).

أنظر 12-18، Paris, 1980، Le Coran, traduction de Blachère (Régis): Blachère (Régis) وأنظر كذلك فهراس الأجزاء الثلاثة للجابري (محمّد عابد): فهم القرآن الحكيم، التفسير حسب ترتيب النزول (الأجزاء/ الأقسام الثلاثة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط 1، 2007-2009

ذكر البيضاوي الشيرازي (ت691هـ) في "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" في ما يتعلق بالآية السابعة عشرة من سورة الأحقاف، وهي قوله تعالى: "وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفَّ لَكُمْ أَتَعِدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ".<sup>43</sup> أنها آية "قد صحَّ نزولها في عبد الرحمان بن أبي بكر قبل إسلامه".<sup>44</sup> وأضاف جلال الدين السيوطي (ت911هـ) في "الباب النقول في أسباب النزول": "كانا [أبواه] يأمرانه بالإسلام فيردّ عليهما ويكذبهما [...] وقال] مروان في عبد الرحمان بن أبي بكر: إن هذا الذي أنزل الله فيه والذي قال لَوْلَاذِيهِ أَفَّ لَكُمْ [...]، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري".<sup>45</sup>

إن الخبر الأخير يفرض علينا جملة من الأسئلة أغلب متصل بالظروف التي حقت باللقاء وأسباب تحامل مروان على عبد الرحمان بن أبي بكر،<sup>46</sup> وأهم تلك الأسئلة: من تراه مروان؟ وابن من؟ وما علاقته بعبد الرحمان بن أبي بكر؟ وأنى لعائشة أن تنهض للدفاع عن عبد الرحمان أمام المدعو بمروان، والحال أن اسم الإشارة "هذا" المتبوع باسم الموصول "الذي" يدلّ على وجود عبد الرحمان أمام مروان لحظة التلقظ؟ والأهم من ذلك متى تمّ هذا اللقاء؟ وأين؟ وكيف لعائشة أن تحضر فيه؟

وهل أخطأ مروان السبيل، عندما نعت عبد الرحمان بما نعت؟ ولما لزم عبد الرحمان الصمت، هل هو الحياء والتواضع ورحابة الصدر أم هل هو الشعور بالهوان والذلّ والصغار؟ أمّا موقف عائشة، فهل كان انتصاراً للحقّ أم هل كان انتصاراً للأخوة؟ ولكن إذا كان الخبر من نسخ خيال الرواة والمحدثين، فما هي الغاية التي من أجلها تمّ وضع الخبر؟ وما المقصود بالأساطير؟ ومن المعنيّ بالأولين؟

روى محمود جار الله الزمخشري (ت538هـ) في "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" تفاصيل عديدة متعلّقة بالخبر من شأنها أن تكشف اللثام عن بعض الجوانب الغامضة فيه، منها أنّ: "معاوية [حين كتب] إلى مروان بأن يُبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمان: لقد جئتم بها هرقلية أ تُبايعون لإبناكم. فقال مروان: يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه: "وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفَّ لَكُمْ"، فسمعت

<sup>43</sup> - سورة الأحقاف 17/46

<sup>44</sup> - البيضاويّ الشيرازي (القاضي ناصر الدين): تفسير البيضاويّ المسمّى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلميّة، منشورات محمّد علي بيضون، ط 1، بيروت لبنان، 1999، مج 2، ص 395. أمّا الزمخشري (جار الله محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتصحيح علي محمّد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، مكتبة العبيد كان، ط 1، الرياض السعوديّة، 1998، ج 5، ص ص 500-501. ففدّم تفاصيل مهمّة منها أنّ الآية "نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه [...] إلى الإسلام فأفّف بهما وقال: إبعثوا لي جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو، وهما من أجداده حتى أسألهما عما يقول محمّد."

<sup>45</sup> - السيوطي (جلال الدين): لباب النقول في أسباب النزول، اعتنى به عبد المجيد طعمة، دار المعرفة، ط 3، بيروت لبنان، 2000، ص 267

<sup>46</sup> - عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق هو شقيق أم المؤمنين عائشة. وقد حضر بدرًا مع المشركين ثم أسلم وهاجر قبيل الفتح وقد كان أسن أولاد الصديق، وكان من الرماة المذكورين، وقد ذكرت كتب التاريخ أنّه عارض بشدة أخذ البيعة ليزيد بن معاوية.

عائشة، فعُضبت، وقالت: والله ما هو به [كذا] ولو شئت أن أسميه لسميته، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض\* من لعنة الله.<sup>47</sup>

بناء على ما رواه الزمخشري، نتبين زمن وقوع الأحداث؛ ففي خمس وستين من الهجرة سعى معاوية بن أبي سفيان إلى أخذ البيعة لابنه يزيد،<sup>48</sup> وفي تلك السنة " أرسل [ معاوية ] إلى عبد الرحمان بن أبي بكر [ يطلب البيعة ليزيد ] ، فقال يا ابن أبي بكر بأية يد أو رجل تُقدم على معصيتي. قال [ عبد الرحمان ] أرجو أن يكون ذلك خيرا لي. فقال [ معاوية ] والله لقد هممت أن أقتلك".<sup>49</sup>

كانت المدينة رمز السلطة الدينيّة ومجمع الصحابة وأبنائهم، بيعة أهلها ليزيد ضرورية في تصوّر معاوية، ولا ضير من سفك الدماء إذا اقتضت الحاجة ذلك " لقد هممت أن أقتلك".

ونحن إذا ما جمعنا شتات الخبرين، تبين لنا أن المقصود بـ"مروان"، هو مروان بن الحكم (ت65 هـ/66 هـ)<sup>50</sup> والي معاوية (ت9 هـ) بن أبي سفيان (ت33 هـ/34 هـ) على المدينة ومكة والطائف.<sup>51</sup> ويبدو أنّ أحداث الخبر الأول-الخبر الذي رواه الزمخشري-سابقة لأحداث الخبر الثاني؛ فمعاندة عبد الرحمن للمبايعة هو السبب وراء تلويح معاوية (الخبر الثاني) باستعمال العنف المادي (القتل).

لقد سعى معاوية بن أبي سفيان – من خلال مروان بن الحكم-إلى جعل الخلافة ملكا يورث، وهو ما عدّ خرقا لما نصّ عليه عقد الصلح بين معاوية والحسن بن عليّ بن أبي طالب،<sup>52</sup> وقد وعى المسلمون مراد معاوية ورغبته في وضع أسس تقاليد جديدة لحياة المسلمين (الانتقال من الخلافة إلى ملك/هركليّة)، وقد كان ساكنو

47- الزمخشري (جار الله محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (سبق ذكره)، ج 5، ص 501

48- الطبري (محمد بن جرير) (ت310 هـ): تاريخ الرسل والملوك، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 2، القاهرة مصر، (د ت)، ج 5، ص 300

49- المرجع نفسه، الجزء نفسه، ص 304

50- مروان بن الحكم هو الخليفة الأموي الرابع بعد معاوية ويزيد ومعاوية الثاني تولّى الحكم في محرّم 65، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ أنّه هو من قتل طلحة يوم البصرة، أنظر الذهبي (الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، (دون مكان)، (د ت)، ج 1، ص 14، على أنّ السؤال الذي يفرض نفسه في مثل هذا المقام: لماذا يقتل مروان طلحة، والحال أنّ ابن الحكم "خرج مع عائشة وطلحة والزبير [ يطلب عليا بن أبي طالب، أنظر الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، (سبق ذكره)، ج 4، ص 509 . وقد نهض مروان بأدوار سياسية مهمة في خلافة عثمان، فالمستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن Julius Wellhausen : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، مراجعة حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة، ط 2، القاهرة مصر، 1968، صص 39- 40 اعتبر مروان بن الحكم صاحب القرار ومدير الدولة.

51- وُلّي مروان بن الحكم على المدينة ومكة والطائف مرتين من 42 هـ إلى 48 هـ ومن 54 هـ إلى 57 هـ، وهو ما يعني أنّ أحداث الخبر تتعلق بأخر من سنوات الولاية الأولى، ففي سنة 48 تم عزل مروان بعد أن بدأت تظهر في الأفق خلافات بينه وبين معاوية، على أنّ كتب التاريخ (الطبري،..) لم تشر إلى أسباب الخلاف. هل للمسألة صلة بإقدام معاوية على تعيين يزيد ولياً للعهد أم أنّ المسألة تتجاوز ذلك؟

52- احتوى نص المعاهد على شروط عديدة أهمّها: "ليس لمعاوية أن يعهد لأحد بعده وأن يكون الأمر شورى". أنظر نص المعاهدة كاملاً في البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر): جمل من أنساب الأشراف، تحقيق وجمع سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت لبنان، 1996، ج 3، ص 287

مكة والمدينة أكثر الجماعة إدراكا لما يترتب على أخذ البيعة ليزيد بن معاوية من توطيد أركان سيطرة بني عبد شمس على سائر الأنساب العربية.

إنّ ما يفرّق بين أطراف الخطاب أكثر من الذي يجمعهم، وهو ما يفسّر قيام الحوار بينهم على الاتّهام وردّ الاتّهام؛ فالانتماء القبلي والولاء السياسي نهضا بدور مهمّ في نسج أحداث الخبر، وفي مثل هذا المقام يكون النصّ المقدس شاهدا وحقّة يستند إليها المتكلّم لكسب المؤيدين من جهة، وللحطّ من شأن الخصم السياسي من جهة أخرى، وللمفاضلة في ما يتّصل بهذه المسألة مستويات عديدة منها: النسب، والسبق إلى الإسلام، والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام...

إنّ أحداث الخبر سوءا كانت من وضع المُحدّثين أم كانت حقيقة تبيّن أنّ مُفسّري "القرآن الكريم" ودارسي علم "أسباب النزول" قد ضيقوا من الدلالات المتعلقة بالآية، عندما جعلوها متعلّقة بفرد معين، وفي ذلك محاكاة للنصّ القرآنيّ الذي أشار صراحة إلى عدد محدود من الناس (أب، أم، ابن)، ولكنّ المسألة -في تقديرنا- تتجاوز هذا العدد القليل، لتطول أغلب مشركي قريش،<sup>53</sup> ذلك أنّ اعتبار "القرآن الكريم" أساطير للأولين أمر دارج يومها بين مشركي مكة وغيرها من القرى في شبه الجزيرة العربية دون تخصيص أفراد أو أقوام بالحكم؛ فمروان بن الحكم الذي قام محاجبا مستندا إلى "القرآن الكريم" كان من الطلقاء،<sup>54</sup> ولعله كان أكثر عداوة للإسلام من عبد الرحمان بن أبي بكر. فنحن إذا ما تأملنا الآيات القرآنية الثمان المتبقية ألفيناها تخبر عن مقصد قريش من نعت الوحي بـ"أساطير الأولين"، فهي بهذا التعبير رامت التّحقير من شأن محمّد، وما جاء به من مشاهد البعث والثواب والعقاب في الآخرة.

إنّ قريشا عندما وسمت "القرآن الكريم" بـ"أساطير الأولين"، لم تكن بصدد إبداء رأي في الجوانب الأسلوبية أو البيانية بقدر ما كانت تصدح برفضها لما في الوحي من إخبار عن البعث الأخروي، ويتجلّى ذلك في الصّلة التي تربط بين طرفي الخطاب؛ فهذه التّهمة جاءت في فترة تميّزت بالتّوتر الشّديد بين قريش ومحمّد(ص).

قام موقف قريش من محمّد(ص) وأتباعه -في تقديرنا- على أمرين، هما:

- الأمر الأوّل: إنّ مواقفها من محمّد(ص) عرفت نسقا تصاعديا، فكّلما وعت بازدياد نفوذه، ازداد موقفها تصلّبا، ذلك أنّها كانت تدرك جيّدا ما يمثّله تعاضم أمره من خطر على نفوذها، وعلى وجه الدقّة نفوذ أسياها.

<sup>53</sup>- أنظر ابن عاشور (محمّد الطاهر): تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر والدّار الجماهيريّة للنّشر والتّوزيع والإعلان، ط 1، تونس ليبيا، (د ت)، ج 26، ص 37 عندما أشار إلى أنّ جمهور المفسّرين اعتبر "الآية لا تعني شخصا معينا وأنّ المراد منها فريق أسلم أبائهم ولم يسلموا حينئذ".

<sup>54</sup>- أنظر جواد (علي): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت في نشره جامعة بغداد، ط 2، العراق، 1993، مج 6، ص 125

ويؤكد مذهبنا هذا أمورا عديدة؛ أولها ما ذكرته كتب السيرة من أنّ قريشا لم تكثر بأمر الإسلام في بداية الدعوة لتغيّر موقفها من محمد (ص) بتغيّر موازين القوى.

- الأمر الثاني: إنّ قريشا كانت حريصة على التّواصل (سؤال/جواب) مع محمد (ص) نظرا إلى الصّلة التي تربطها به، إذ أبدت رغبة في استدراجه واستمالته بالتّفاوض معه في مرحلة أولى؛<sup>55</sup> فالاستهزاء به والتّضييق عليه واضطهاده واضطهاد أتباعه في مرحلة ثانية، ثمّ محاربته بعد أن أدركت استحالة التّوصل إلى اتّفاق معه.<sup>56</sup>

### أساطير الأولين

ذهب جملة من دارسي الأدب العربي القديم إلى القول إنّ "العرب كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وأسمار وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات فراغهم، ويصوّرون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم".<sup>57</sup> وقد كانوا ينشدون في القصص الأناج والراحة والتخفيف عن الأنفس أعباء الحياة،<sup>58</sup> وهي تقوم على "أحداث تاريخ وحكاية حياة [مما يجعلها] تحتاج إلى التّدوين في نقلها".<sup>59</sup>

ويبدو أنّ جزءا مهما من القصص قد دوّن، من ذلك ما نسب إلى "النّضر بن الحارث بن كلدة استعماله القصص المتعلّق بالأكاسرة، لصرف النّاس عن "القرآن الكريم"؛ ففي "الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل" للزمخشري، نقرأ أنّ "النّضر بن الحارث المقتول صبورا، حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون [قال] لو شئت لقلت مثل هذا، وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأسفنديار، فزعم أنّ هذا مثل ذلك [يقصد القرآن الكريم] وأنّه من جملة تلك الأساطير".<sup>60</sup>

هذه الأخبار وغيرها تكشف عن المقصود بـ"الأساطير"، تلك القصص التي يروم من خلالها الرّاي التخفيف عن القوم، ويكون ذلك مشافهة<sup>61</sup> (حكاية، أحداث)، وقد يكون مدوّنا في سطور؛ ففي "لسان العرب":

<sup>55</sup>- أنظر على سبيل المثال ما نقله رضا (رشيد): محمد صلى الله عليه وسلم، راجعه أبو الشّباب أحمد عوض، المكتبة العصريّة، صيدا لبنان، 2007، ص 99 وما بعدها.

<sup>56</sup>- أنظر على سبيل المثال ما نقله رضا (رشيد): محمد صلى الله عليه وسلم، راجعه أبو الشّباب أحمد عوض، المكتبة العصريّة، صيدا لبنان، 2007، ص 99 وما بعدها.

<sup>57</sup>- مبارك (زكي): النثر الفنّي في القرن الرّابع، مطبعة دار الكتب المصريّة، ط 1، القاهرة مصر، 1934، ج 1، ص 197

<sup>58</sup>- ذهني (محمود): القصّة في الأدب العربيّ القديم، الأنجلو المصريّة، 1973، ص ص 53- 144

<sup>59</sup>- خورشيد (فاروق): الرّواية العربيّة عصر التّجميع، دار الشّروق المصريّة، ط 3، القاهرة مصر، 1982، ص 28

<sup>60</sup>- الزّمخشري (جار الله محمود بن عمر): الكشّاف، (سبق ذكره)، مج 2، ص 507

<sup>61</sup>- ذكر جواد (علي): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (سبق ذكره)، مج 8، ص 379 أنّ معاوية بن أبي سفيان أمر بتدوين مسامرات عبيد بن شريّة الجرهميّ التي كانت تلقى مشافهة عليه (الخليفة) في ثلث من اللّيل.

"أساطير الأولين معناه سَطْرَةُ الأوَّلون وواحدُ الأساطير أُسْطُورَةٌ كما قالوا أُحْدُوثَةٌ وأحاديثٌ وسَطْرٌ يَسْطُرُ إذا كَتَبَ".<sup>62</sup>

بناءً على ذلك، نقول إنَّ "الأساطير" قصص تُنسب إلى الآخر، وقد يتَّسع مصطلح "الأوليين" ليدلَّ على كلِّ ما قاله السَّابِقون من بعث للأموات، ذلك أنَّ المرَّكبَ الاسمِيَّ بالإضافة "أساطير الأوليين" يرد في "القرآن الكريم" على السنة المشركين في وصف الوحي في ما يتعلَّق بمقولة البعث، ونحن إذا ما راجعنا مواقف عرب الجاهليَّة، لاسيما في مكَّة من البعث وجدناهم يرون أنَّ الموت نهاية، وأنَّهم غير مبعوثين.<sup>63</sup> إذ "قالوا [له] إنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ".<sup>64</sup>

لقد كانت قريش على بيِّنة من البعث، فلم يكن تناول "القرآن الكريم" للبعث أمرا جديدا، بل كان تذكيرا باعتقاد رفضت الإيمان به في أمسها، ولأجل ذلك أَلْفينا قريشا تتعت حديث الوحي عن البعث بـ"أساطير الأوليين".<sup>65</sup>

قالت قريش: كلامك يا محمَّد ليس بالجديد، هو امتداد لما قال الشعراء، أمثال أميَّة بن أبي الصَّلْت وزهير بن أبي سلمى والأعشى...، محاولة بائسة في التخفيف من وطأة الحقيقة المفزعة المتمثلة في الموت (العدم) أو المسخ (الهامة)... فلماذا تصرَّ على ما لا وجود له.

لم يستطع الرِّسول (ص) أن يُقنع قريشا بإله غير مرئيِّ يفوق هبل واللات ومناة، وبأنَّ هذا الإله سيجمع النَّاس في "يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ"،<sup>66</sup> وبأنَّه "يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ"،<sup>67</sup> إنَّه لأمر عصيَّ على الأفهام في ثقافة بنت معارفها على كلِّ ما هو حسيّ، ذلك أنَّ الصراع بين محمَّد (ص) وقريش مداره على بعث الأجساد ووجود عالم آخر غيبي غير مرئي. أراد أن يجعل للموت معنى، فرفضت قريش، لأنَّها رأت في نبوتِّه محاولة لصرف الأنظار من الأرض إلى السَّماء من هبل واللات ومناة إلى الله الواحد القهَّار المفارق، من آلهة القوم إلى إله الكون، وهي أيضا بذلك ترفض إقامة منظومة أخلاقيَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة جديدة بدلا من المنظومة القائمة آنذاك.

<sup>62</sup> - راجع ابن منظور (جمال الدين): لسان العرب، (سبق ذكره)، مادة (س، ط، ر)، ج 4، ص ص 284-285

<sup>63</sup> - أشار جواد (علي): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (سبق ذكره)، مج 6 في الفصل الرابع والسَّتين: "الله ومصير الإنسان" إلى هذا الموقف هو موقف أغلب العرب، ذلك أنَّ ثمة جماعات قليلة العدد كانت تؤمن بالبعث، على أنَّ دلالات البعث لم تكن لديها واضحة المعالم.

<sup>64</sup> - سورة الأنعام 29/6

<sup>65</sup> - سورة المؤمنون 82/23-83 وسورة النمل 67/27-68...، راجع عبد الباقي (محمَّد فواد): المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، ط 3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1992، مادة بعث، ص 158

<sup>66</sup> - سورة المعارج 4/70

<sup>67</sup> - سورة يس 78/36



## من المقصود بالأولين؟

لم يحدد "القرآن الكريم" المقصود بـ"الأولين" تحديداً دقيقاً، إذ يحتمل أن تكون العبارة دالة على السابق من الأجداد والآباء، وقد تكون دالة على أخبار السابق من الأنبياء،<sup>68</sup> وقد تكون دالة على السابق من الأمم البائدة،<sup>69</sup> وقد تكون دالة على ما كان يُقصّ من أخبار يصيب منها القوم متعة مع الوعي بأنها من نسج المتخيّل وصنعه.

إنّ هذه الاحتمالات وغيرها تظلّ ممكنة، ذلك أنّ في كتب التاريخ أخباراً عديدة تؤكّد اتّصال العرب بسائر شعوب المنطقة؛<sup>70</sup> فالإغريق – على بعد المسافة- عرفوا تلك المنطقة من الصحراء. وفي الاتّصال بتلك الشعوب دلالة على التّواصل الثقافيّ بينها، يضاف إلى ذلك ما نقلته كتب الأخبار والسيرة من انتشار اليهوديّة والمسيحيّة في قرى وقبائل تلك الرّبويع، إلى جانب ما ذكره "القرآن الكريم" من رحلات تجاريّة كانت تقوم بها العرب نحو الشّام واليمن،<sup>71</sup> وما كانت عليه قبائل العرب في الشّمال من اتّصال بالفرس والرّوم.

إنّ اعتبار المقصود بـ"أساطير الأولين" أخبار السابق من الأنبياء، أمر غير مستبعد في ظلّ الأخبار التي أكّدت وجود أنبياء ومنتبئين قبل محمّد (ص) من جهة، وزعمها (الأخبار) أنّ العرب كانوا في انتظار قدوم رسول منهم يعلمون اسمه ويعرفون صفاته، حتّى أنّ البعض سمّى الأبناء محمّداً طمعا في أنّ يكون الابن النّبويّ الموعود.<sup>72</sup>

## قراءة في الموت والبعث عند الجاهلي: منزلة الكلمة والسيف في قهر للموت

الموت اسم للمجهول المقلق المرعب، مهّد اللذات ومفرّق الأحباب والأصحاب، حياة الإنسان منذ نشأته إلى يوم يُورى التراب سعي دائم إلى قهر الموت؛ فكثيراً ما أجهد الإنسان نفسه في سبيل الخلود، مستنجداً بالعرّافين والمنجّمين، مبتكراً العقاقير مستنداً إلى الشعوذات والرقى والتمايم، وغيرها من الأدوات والوسائل، ولأجل ذلك تقرّب إلى كل من له قوّة غيبيّة، يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّها قادرة على ردّ الجِمام عنه، فإليها قدّم القرابين والهدايا وأظهر الولاء والطاعة، كي ترفع عنه الأخطار المحدقة به، وما رفع المصائب عنه إلّا وجه من وجوه الحياة والبقاء.

<sup>68</sup> - ذهب عجبنة (محمّد): موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، (سبق ذكره)، ج 1، ص 17 إلى أنّ المقصود بـ"أساطير الأولين" في نظر قريش هي ما نجده في القرآن من قصص الأولين ممّا يسمّى حديثاً مثل حديث موسى [...] وهو ما يسمّى أنباء". وقد يكون المقصود به أنبياء الذين ظهرُوا في الجاهلية. أنظر في شأنهم الفصل 64- من كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (سبق ذكره)، ج 6، ص ص 83-101

<sup>69</sup> - أمين (أحمد): فجر الإسلام بحث في الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدّولة الأمويّة، دار الكتاب العربي، ط 10، بيروت لبنان، 1969، أنظر ما ذكره في المبحث الأخير " دلالة القصص" من الفصل الخامس من الباب الأوّل، من ص 66 إلى ص 68

<sup>70</sup> - جواد (علي): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (سبق ذكره)، الفصل السابع عشر العرب واليونان، مج 5، ص 36. وأنظر أيضاً موسكاتي (سبتيو): الحضارات السامية القديمة، ترجمة وتعليق السيّد يعقوب بكر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة مصر، (د ت)، ص 123

<sup>71</sup> - سورة قريش 2-1/106

<sup>72</sup> - رضا(محمّد): محمّد صلّى الله عليه وسلّم، (سبق ذكره)، ص 64



إنّ البحث في منزلة الموت وصلته بالإنسان مبحث جامع لمختلف الثقافات قديمها وحديثها شرقاً وغرباً؛ ففي أدغال الغابات وفي السهول وفي الجبال وفي الكهوف، أنشأ الإنسان القبور واحتفى بالأموات، فكانت الأرواح متناسخة في أجسام مخلوقات مختلفة في تصوّر طوائف الهندوس،<sup>73</sup> وكانت تقيم في عالم خفي تحت الأرض لدى المصريين القدامى،<sup>74</sup> وكانت متجسّدة في الهام عند العرب في الجاهليّة.<sup>75</sup>

كان العرب - في جميع الحالات - مسكونين بالسؤال عن الموت وعالمه،<sup>76</sup> إذ اختلقوا الأساطير كي يُفسّروا انتقال الإنسان من الحركة والحياة إلى السكون والعدم. فلم يروا في الحيوانات المفترسة والكاننات غير المرئية وعناصر الطّبيعة (الليل،..) إلاّ عناصر فناء تهدّد حياته، ومن أجل ذلك عمد إلى الصّحراء يَخْتَبِرُهَا، فأدرك بفضلها أنّ الحياة برهة من الزّمن، إنّ لم يغنمها ضاعت وضاع، فكان الموت هادم اللذات ومفرّق الأحباب. وكان عند أمّية بن أبي الصلت كأساً كلّ النَّاس ذائقها.<sup>77</sup> أمّا أبو ذؤيب الهذليّ - وهو يرثي أبناءه- لم ير فيه غير كاسر ينشب أظافره فيه فيُفنيه، وما من تميمة (السحر، العرافة،...) تنفع أو ترد الموت عنه. وفي ذلك قال [الكامل]:

وَلَقَدْ حَرِصْتُ بِأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ      فَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ  
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا      أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ<sup>78</sup>

أيصحّ بعد ذلك القول ببعث الأجساد والأرواح في عالم أخروي؟ وأيّ معنى لوجود إله واحد يحكم الكون ويسيرّه ما لم يردّ عنه ذلك الموت الكاسر؟

ما كان الجاهليّ ليعبأ بالغيّب لو لم ير فيه كائنات تهدّد وجوده. فما الحياة إلاّ صراع ينازل فيه الإنسان قوى الغيب (الجنّ، الشياطين، العفاريت،...)، فهذا تأبطّ شرّاً يروي أحداث معركة واجه فيها الغول، فيقول: [الوافر التام]

<sup>73</sup>- أشار يحيى (أحمد إسماعيل): الإسلام والمعتقدات الدنيّة القديمة، ط 1، مكتبة الدار العربيّة للكتاب، القاهرة مصر، 2002، ص 105 وما بعدها إلى ما ساد ديانات الهند من اعتقاد بتناسخ الأرواح.

<sup>74</sup>- أنظر ما ذكره- في مواضع عديدة- السّواح (فراس): مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة (سوريا أرض الرّافدين)، دار علاء الدّين، ط 1، دمشق سوريا، 2002

<sup>75</sup>- أنظر تصوّر العرب الجاهليين للهامة/ الصدى في عجيبة (محمّد): موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، (سبق ذكره)، ج1، ص ص 334-335

<sup>76</sup>- البيضاوي (علي): الإحساس بالزّمان في الشعر العربي من الأصول حتّى نهاية القرن الثّاني للهجرة، جامعة تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، 2001، ج1، ص 225

<sup>77</sup>- قال [المنسرح] مَنْ لَمْ يَمُتْ عَيْطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأْسٌ وَالْمَرْءُ دَانِقُهَا. ص 53 / ديوان أمّية بن أبي الصلت، تحقيق وتقديم سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، (د، ت).

<sup>78</sup>- الصّنبّي الكوفيّ (المفضّل بن محمّد بن يعلى): المفضّليات، تحقيق قصي الحسين، ط 1، دار مكتبة الهلال، بيروت لبنان، 1999: المفضّليّة السادسة والعشرون بعد المئة، ص 238

وَإِنِّي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي  
فَقُلْتُ لَهَا: "كَلَانَا نِضْوُ آيِن  
فَسَدَّتْ شُدَّةَ نَحْوِي، فَأَهْوَى  
فَأَضْرِبُهَا بِبَلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ  
فَقَالَتْ عُنْدَ قُلَّتْ لَهَا رُويَدًا  
فَلَمْ أَنْفَكْ مُتَّكِنًا عَالِيهَا  
إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسِ قَبِيحِ  
وَسَاقًا مُخْدَجٍ وَشَوَاةً كَأَلْبِ  
بِسُهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحَّحَانَ  
أَخُو سَفَرٍ، فَخَلَّى لِي مَكَانِي  
لَهَا كَفِّي بِمَصْفُوقٍ يَمَانِي  
صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَالْجِرَانِ  
مَكَانِكَ إِنِّي تَبْتُ الْجِنَانَ  
لِأَنْظُرَ مُصْبِحًا مَاذَا أَتَانِي  
كَرَّاسِ الْهَرِّ مَشْقُوقِ الْلسَانِ  
وَتَوْبٍ مِنْ عِبَاءٍ أَوْ شِنَانٍ<sup>79</sup>

إنّ هذه الأبيات الشعرية تكشف عن عمق العلاقة التي قامت بين الجاهلي والكائنات غير المرئية التي تظلّ خارج عالمه تراقب ولا تشارك في الفعل؛ فمتى تبين لها انتهاك الإنسان لسلطانها تجلّت في الوجود مخلوقاً غريباً مخيفاً ساعياً إلى إهلاك الإنسان، وهذا تأبطٌ شرّاً تمرّد على سنن وأعراف القبيلة وبادر الوجود بذاته، وخرج عن سلطة الجماعة، وما سلطة الجماعة إلا سلطة تلك الكائنات غير المرئية، خرج عن سلطة الغيب، فتجلّى له كائناً يبعث الرعب في نفس الإنسان.

كان صراع تأبطٌ شرّاً ضدّ الغول ذلك الكائن الغيبيّ صراعاً من أجل البقاء "خَلَّى لِي مَكَانِي"، ولا بقاء إلاّ بهلك الآخر؛ فعلى أنقاض الموت تُبنى الحياة، فلو دَقَّقْنَا النَّظْرَ لوجدنا الإنسان ينتصر بالسيف، وما السيف إلاّ حضارة، والحضارة في أصلها وعي بالوجود، وعي الإنسان بأنّ الأرض عالم قوّته، وأنّ الكائنات غير المرئية كائنات عاجزة أمام سلطته في الأرض، فوراء قبح الغول ضعف، فلو أعدنا النَّظْرَ كَرَّةً أُخْرَى في قوله "وَسَاقٍ مُخْدَجٍ"<sup>80</sup> نتقطّن إلى أنّ الإنسان قد أدرك مواطن الضعف في الغول، فضعف السّاق دال على ضعف الانتماء إلى الأرض، والأرض هي الإنسان، ولكي يدخل كان من كان عالم الإنسان عليه أن يتخذ ملامحه من عالم الإنسان، وعليه أن يتجلّى في هيئة الموجودات، غول تأبطٌ شرّاً هراً كان أم كلباً أم...، وكان شيطان لبيد شيخاً يقيم بمعزّة، وكان لملائكة الرّحمان في "القرآن الكريم" أجنحة تشبه أجنحة الطّير،<sup>81</sup> وكان البراق في قصّة الإسراء ما بين البغل والطّير.<sup>82</sup>

<sup>79</sup>- ديوان الصّعاليك، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت لبنان، (د ت)، ص 171

<sup>80</sup>- ذكر ابن منظور (جمال الدين): لسان العرب، (سبق ذكره)، مادة (خ، د، ج)، ج 2، ص 226 "مُخْدَجُ الْيَدِ أَي نَاقِصُ الْيَدِ".

<sup>81</sup>- سورة فاطر 1/35

<sup>82</sup>- ابن هشام (عبد الملك): السّيرة النبوية، تحقيق محمّد نبيل طريفي، دار صادر، ط3، بيروت لبنان، 2010، ج 2، ص 21

لا سبيل لتجلي الغيب إلا بـ"المتخيّل"، هو مُتَخَيَّلٌ يقيمه الإنسان بإعادة تركيب الموجودات، فهل الغائب ذلك الشاهد غير المرئي؟ أم تراه إمكانا من إمكانات الموجود الذي لم يع الإنسان كنهه؟ فهذا المرقش الأكبر، ينشد القوم [الكامل التأم]:

سَرَى لِيَا خَيَالًا مِنْ سُلَيْمَى فَأَرَقْنِي وَأَصْحَابِي هُجُودُ

أبصر خيال سلميى وقد سرى لعاشق أفناه الوجد، فظن بالخيال حقيقة، ولما أدرك الوهم، تأسف وما أسفه على سلميى، ولكنه أسف المقتول بعد هنيهة، وقد ظن أنه نجا من الوحدة، وما الوحدة إلا شكل من أشكال الموت، وفي هذا السياق نزل أيضا ما أخبر به "القرآن الكريم" من أن قريشا كانت ترى في الموت سكونا وعندما يوم قالوا لمحمد(ص): "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ".<sup>83</sup>

دعا محمد قومه إلى الإيمان بالبعث وبعثه غائبة، فسخروا منه وتندروا به، إذ قام شداد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك يرثي قتلى قريش في بدر (2هـ) وينكر بعث الأموات [الوافر]:

يُخْبِرُنَا الرَّسُولُ بِأَنْ سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةَ أَصْدَاءٍ وَهَامُ<sup>84</sup>

اختزل شداد عبث الحياة وعمقها في تصور الجاهلي، فلو دققنا النظر في مواقف الشعراء لأدركنا حيرة العربي أمام الوجود؛ فهو مسكون بحب فاطمة وعبلة وأسماء وسلميى وسُميية يذكرهن لحظة الوقوف بالديار مُتَخَيَّلًا إِيَاهُنَّ وقد سرن بين مضارب القوم أو هن واقفات في الحي، ولكن المُتَخَيَّلَ سرعان ما يتلاشى تاركا الفضاء مترعا للشكوى ومواجع البين، وما كان من أمرهن يوم الوداع، ولكن هل كان للرحيل معنى ما لم يكن إمكانا من إمكانيات الموت؟؟ ذلك أن الوقوف على الأطلال والبكاء عليها طقس من طقوس الموت، فأطلالها صورة من صور القبر. الحبيبة بما هي رمز من رموز الحياة/الماضي (الفتوة، اللهوء..). فإن غيابها شكل من أشكال سطو الزمان/الدهر الاسم المستعار للموت.

الأسطورة التي حفلت بها مدونات العربي، هي ولهُ الرّوح في توقه إلى الخلود، ولكنها أيضا نافذة على الأمل يفتحها الجاهلي عسى أن يأتي يوم يقتل فيه العربي الغول رمز الموت اقتداء بتأبط شرا.

إن للعربي أساطير ومرويات حاول من خلالها تبين ماهية وجوده في ضوء واقعه، وبهذا المعنى، فإن الأسطورة عنده كانت تعبيراً رمزياً عن رؤية مخصوصة للوجود حملها جميع ما من شأنه أن ينغص عليه

<sup>83</sup> - سورة الجاثية 24/45

<sup>84</sup> - أنظر ابن هشام (عبد الملك): السيرة النبوية، (سبق ذكره)، ج 2، ص 268

طيب العيش، ويبعث فيه أرقا يقضّ المضجع، في ظل الموت المحقق لم يجد الجاهلي مخرجا له غير الانغماس في ملذات الحياة (الخمير، النساء، ...) يطلب فيها الملجأ فلا يجده، فإذا هي لذات لا تغني من الموت الشيء.

عجزت لذات الحياة عن قهر الموت الذي ظل في تصوّر الجاهلي الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود، في ظلّ هذا العدم نراه يهرع إلى الشّعْر، والشّعْر "ديوان العرب" ما خلد فيه يوما شيئا، إلا لا اعتقاده أنّ الموت يُفني الجسد ويُهلكه، ولا يطول الشّعْر فيبليبه، فليُهلك الموت الأجسادَ وليُخلد الشّعْر ما أفنى الموت.

رقد التصوّر العربي لعالم ما بعد الموت من الموروثات الدينية المحيطة به من جهة، ومن طبيعة الفضاء الذي نشأ فيه من جهة أخرى، فإذا بالموت تعبير عن قلق الإنسان ومبعث غمّه وهمّه، في حين عمد النص القرآني إلى إعادة بناء هذه الرؤية، عندما ربط بين عالم الحياة وعالم ما بعد الموت، محدثا انسجاما بينهما رافعا الهمّ والغمّ عن القلوب مبشّرا بعالم السعادة والسلام، جاعلا بذلك الموت لحظة انتقال من عالم الشهادة إلى عالم الغيب عالم الحياة الخالدة (الجنة).

## خاتمة

الخطاب الأسطوري هو نظام رمزي متخيّل<sup>85</sup> تكون فيه جميع أبعاد الأفعال الإنسانية (الزمن، المكان، الأحداث، ...) حاملة لدلالات غير متناهية (التأويل) تتجلى في سرد عجيب يفسّر نشأة الأشياء، ويبيّن أسباب وجودها، وهو من هذا المنظور صنو للخطاب الديني؛ فالخطابان يقومان على بنية رمزية يحاولان من خلالها الإجابة عن أسئلة أفضت مضجع الإنسان.<sup>86</sup> ويتجلى ذلك في إقرارهما بوجود قدرة متعالية. وهما بذلك قدّما أجوبة عن الظاهرة البشرية برّدّها إلى السابق أو الغائب، وهذا السابق أو الغائب، وإن كان على صلة بعالم الإنسان، فإنّه مُفارق له. يطلب الإنسان في الغيب معنى للوجود وللحياة.<sup>87</sup>

فالعلاقة القائمة بين الأسطورة والنص المقدّسة هي علاقة الوجه بالقفا، ولكن ما يلفت الانتباه نفي النصوص المقدّسة نفيًا قاطعا أنّ تكون خطابات أسطورية، ويعود الأمر في ذلك – في تقديرنا – إلى طبيعة الخطاب الأسطوري؛ فهو إذ يحكي قصة البدايات ويتحرّر من قيود الزمن، يلغي الزمن في بعده التّاريخي، ويربط الظواهر بأصل مُفارق، في حين أنّ النصوص المقدّسة، وإن حافظت على هذه الخصائص تزعم الانتماء إلى التّاريخ؛ فهي تحاول تمثين وشائج القربى التي تصل بينها وبين الواقع التّاريخي الذي نشأت فيه، فرغم أنّ

<sup>85</sup>- أنظر عجيبة (محمّد): موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، (سبق ذكره)، ج1، ص 57

<sup>86</sup>- Le Goff(Jacques): Histoire et imaginaire, Editions Poiesis, Paris, 1986

<sup>87</sup>- ووفق هذا التصوّر فإنّ الذين ليس مجرد طقوس تعبدية يتواصل من خلالها الإنسان مع عالم الغيب، وإنما هو مغامرة وجودية ( وفق تصوّر محمّد إقبال (ت1938م) أنظر تجديد التفكير الديني في الإسلام تعريب عبّاس محمود، تقديم عبد المجيد الشّرفي، ط 1، دار الجنوب، سلسلة معالم الحداثة، تونس، 2006. ) وشكل من أشكال الاجتماع البشري.

دور الأسطورة في النصّ الدينيّ يتمثّل في صناعة التّاريخ، إذ يـ"تحوّل النصّ [الدينيّ] من واقع تاريخيّ إلى واقع يتعالى على التّاريخ"،<sup>88</sup> فإنّ هذا التّعالّي يظلّ داخل التّاريخ لا خارجه.

لقد ظلّت مواقف النّصوص المقدّسة من الأسطورة محكومة بالخلفيّة الثقافيّة التي نشأ فيها كل نص دينيّ؛ فاستخدام عبارة "الأسطورة" لم يخرج في النصوص المقدّسة - لاسيّما "العهد الجديد" "القرآن الكريم" - عن الدائرة الحجاجيّة التي قامت بين الدين الجديد وأنصار الدين القديم. فإذا بنا إزاء تصوّرين للعالم، تصوّر جعل الأرض محور الوجود فيها الإنسان يحيا ويموت، وإليها يعود(تناسخ الأرواح، الصدى والهامة،...)، وتصور رأى في الأرض دار فناء؛ فالحياة الحق في عالم أخروي غيبي.

<sup>88</sup> - أنظر العظمة (عزير): النص والأسطورة والتاريخ ضمن أعمال ندوة الإسلام والحداثة، دار السّاقّي، ط 1، لندن أنجلترا، 1990، ص 259



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية  
ص.ب : 10569  
هاتف: 00212537779954  
فاكس: 00212537778827  
info@mominoun.com  
www.mominoun.com